حوش الغجر

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

حوش الغجر
وليد حسن المدني
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغــوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com

رقم الإيداع: 2018/21112
الترقيم الدولي: 978-977-6634-11-4
الطبعة الأولى: 2019

وليد حسن المدني

حوش الغجر

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

ادفنوني واقفًا، فقد أمضيت حياتي كلّها راكعًا على ركبتي

مانوش رومانوف

(القاهرة ٢٠١٨)

عندما يتأجج حقد السنين في قلب إنسانٍ ويقرر الانتقام مِمَّن ظلمه، حينها لا تشفع عنده يدُ القدر التي أخذت بثأره. حتى وإن تحوَّل ذلك الظالم إلى جثة هامدة أو فقد عقله، كحال صاحبنا الذي كان يبحث عنه «عَربي». إلا أن نار الثأر في قلب «عَرَبي» ما كان يُطفئها ما سمعه عمَّا وصل إليه، فربما لن يستمع بتلذُّذٍ إلى عذابه الذي أذاقه له قبل عشر سنوات. ولكن الدماء وحدها كفيلة بتهدئة ذلك البركان المتفجر في قلبه منذ آخر زيارة له من زوجته في السجن وهي تقص عليه ما حدث لهم.

فبات يبحث عن ذلك المجذوب الذي ترجمه الأطفال بالحجارة وهو لا يتخيل أن تكون نهايته هكذا. ولكنها ليست النهاية، النهاية يجب أن يكتبها «عَربي» بنفسه.

سار بخطوات وئيدة وسط مبانٍ حديثة بُنيت على أطلال حوش الغجر، رغم جمالها وحداثتها والأشجار التي تزين طرقها إلا أنها لم تَرُق له، رغم جمالها إلا أنها تفتقر إلى الروح، روح حوش الغجر. نظراته يملأها الحزن

وهـو يتأمـل منظـر المسـاكن الفاخـرة التـي بنتهـا الحكومـة عـلى أنقـاضِ منازلهـم الشـعبية القديمـة بعـد هـدم الحـي بأكملـه.

نظـرة عينـه تقـول «هنـا كانـت مملكـة الغجـر». كانـت عينـاه تبحثـان عنـه بعـد أن عَلِـمَ منـذ خروجـه مـن السـجن أنـه لا يفـارق حيَّـه القديـم رغـم هـدم منازلـه بالكامـل. ولكنـه دائمًـا يهـرب مـن مستشـفى الأمـراض العقليـة ويـأتي يجلـس في مـكان منزلـه القديـم.

حينـما وقعـت عينـه عليـه شـعر للحظـةٍ بالشـفقة. لم يكـن يتخيـل أن حالَـه وصـل إلى مـا وصـل إليـه، حتـى كلـمات النـاس عنـه لم تكـن تصـف بدقـة الحالـة التـي كان عليهـا.

كان يسـير حـافي القدمـين، رث الثيـاب، طويـل اللحيـة، متجمـدة شـعيراتها مـن الاتسـاخ، يرتـدي جلبابًـا مُمزَّقًـا تظهـر عليـه علامـات البـول المتجمـد، يمسـك في يـده سـيفًا مـن الخشـب، ويهـزي بـكلامٍ غـير مفهـوم للجميـع، يجتمـع حولـه بعـض الأطفـال يهتفـون خلفـه وهـم يقذفونـه بالحجـارة.

- المجنون أهو، المجنون أهو.

يبادلهـم إلقـاء الحجـارة قبـل أن يفـر منهـم والذعـر في عينيـه، يخـرج رجـلٌ كبـيرٌ مـن منزلـه يـصرخ في الأطفـال يبعدهـم عنـه، قبـل أن يربِّـت عـلى كتفـه ويعطيـه لقمـة عيـش يأكلهـا بشـغفٍ وهـو يجلـس تحـت شـجرة.

كانـت عـين «عَـرَبي» تترقبـه، حتـى وجـده اسـتقرَّ أسـفل بنايـةٍ خلـف محطـة كهربـاء في منتصـف الشـارع، وقـد أخذَتْـه سـنة مـن النـوم، اقـترب منـه «عـربي» بعـد أن تأكـد أنَّ المـكانَ خـالٍ تمامًـا مـن المـارة والسـكان، تأمـل وجهـه الهـادئ وهـو نائـمٌ رغـم تجمـع الذبـاب عليـه. لم يسـاوره شـك أنـه يسـتطيع أن يفعلهـا. التفـت يمينًـا ويسـارًا بحثًـا عـن شيءٍ، حتـى وجـد ضالتـه في حجـرٍ ملقـى عـلى جانـب الطريـق. ذهـب وأمسـك بـه قبـل أن يهبـط بـه عـلى رأسـه بضـع مـرات،

لم يسمع منها إلا أنين الموت قبل أن يرتعش الجسد ارتعاشته الأخيرة ويفرّ «عَربي» هاربًا.

***

كانت جريمة قتل بشعة، يندى لها جبين الإنسانية، لم يتخيل أحدٌ أن يتجرد إنسان من إنسانيته وتمتد يده إلى قتل إنسانٍ مجذوبٍ لا يملك من أمره شيئًا، ذلك حينما أفاق أهل الحي على المجذوب الذي كثيرًا ما أدخل الرعب في قلوبهم وهو فاقد النَّفَس غارقًا في دمائه، بعد ضربِه على الرأس بحجر وجدوه ملقى بجواره على الأرض ملطخًا بدمائه، وقد تشوهت جمجمته بالكامل وبدت عيناه الجاحظتان خارج محجريهما.

كثَّفَت المباحث الجنائية بحثها عن القاتل في قضية أخذت اهتمام الرأي العام، حتى تم القبض على الجاني، كان مسجَّل خطر مُفرَجًا عنه منذ بضعة أيام قليلة قبل حادثة القتل من حكم بالسجن بتهمة الإتجار في المخدرات.

حينما عرض ملف القضية على رئيس محكمة جنايات جنوب القاهرة، عاد به الزمن للخلف لعشر سنوات، وبات يتذكَّر تلك القضية التي حقق فيها في شبابه، وكانت تشغل باله وبات يتذكر أسماء المشتبه بهم بوضوح، لم يساوره الشك في أنه هو، كلما مرت أمام عينيه أوراق القضية بدأت معالم المجني عليه تتضح أمامه أكثر حتى تيقَّنَ من أنه هو، فعادت تلك الليلة إلى ذهنه عندما كان مجرد وكيل نيابة صغير يحقق في جريمة قتل، قُيِّدَت حينها ضد مجهول، لتستكمل أحداثها بعد عشر سنوات، ويشاء القدر أن يكون هو أيضًا القاضي فيها، وكأن أبواب السماء تأبى أن تُغلق تلك القضية التي عفا عليها الزمن ضد مجهولٍ دون أن تثأر لها يد القدر.

لم يتمالك رئيس المحكمة الجنائية نفسه، غادر منزله في تلك الساعة المتأخرة من الليل متوجهًا إلى سجن الاستئناف وهناك التقى بالقاتل.

كان لقاءً غير رسمي قبل ساعات قليلة من نظر القضية، دافعه فقط شغف القاضي لمعرفة حقيقة قضية حقق فيها منذ عشر سنوات ولم يتسنَّ له حينها معرفة الحقيقة، فقُيِّدَت ضد مجهول.

كان الجاني يتمتع بهدوءٍ واتزانٍ نَفسيٍّ كاملٍ، اقترب منه القاضي بعد أن تركَ مأمور السجن الغرفة لهم بناءً على طلبه وجلس بجواره على الأريكة الجلدية التي تُزيِّن مكتب المأمور.

كان الجاني شخصًا في الستين من عمره، رغم ذلك يتمتع بكامل صحته التي لم ينَل منها طول فترة سجنه شيئًا، نحيل الجسد، تظهر عروق ذراعه واضحة للعيان، مدَّ القاضي يده بسيجارة إلى «عَربي» وهو يقول له:

- أنا عارف إن جريمة القتل دي ليها قصة كبيرة، قصة بدأت من عشر سنين. بعيد عن التحقيقات الرسمية اللي عارف إنك مش هتقول الحقيقة فيها. أنا جايلك دلوقت أسمع منك الحقيقة. وأوعدك إني مش هكتب كلمة منها في المحاضر الرسمية، إلا اللي انتَ عايز تقوله بس، المهم عندي دلوقت أعرف إيه حكاية صالح ابن فرج الأكتع وأخوه جمال.

***

(1)

على الأصل دوَّر

دائمًا ما تكون الحقيقة واضحة أمامنا ولكننا لا نراها، أو بمعنى أدق نخاف أن نراها، ولأن الحواس ليست دائمًا صادقة في نقلها. فهل تجردت يومًا من ميولك وأهوائك، وخلعت عنك ثوب القاضي على أخلاق الناس والحَكَم على تصرفاتهم لتعبر النهر إلى الجهة المقابلة لترى الواقع من وجهة نظرٍ مغايرة لك.

حينئذٍ فقط يمكنك أن ترى الحقيقة ماثلة أمام عينيك؛ فما كان مستحيلاً عليك القيام به، ربما يكون حينها ممكنًا، وأحيانًا أخرى يكون واجبًا. فيصبح الحب سلعة، والوطن فندقًا، والشرف وجهة نظر، والحياة رحلة قصيرة كرحلة ابن العشرين التي يقطعها كل يوم من جامعة القاهرة مستمتعًا بما جادت عليه نسمات هواء الصيف الساخنة من عليل وهو يحمل بضعة كتب لا تفارق يده وكأنها بطاقة تعريف شخصية له، يحاول بها الهروب من الواقع قبل أن يعود إليه يداهمه من جديد بمجرد أن يترك خلفة مباني شارع القصر العيني العريقة ومستشفياتها القديمة ومؤسسات حكمها السيادية. عابرًا من أسفل سور مجرى العيون تاركًا ذلك العالم خلفه عائدًا إلى حياته في «حوش الغجر».

حين تجتاز ذلك السور لست في حاجة إلى التقزز من منظر المباني العشوائية التي يغلب عليها العشش المبنية من صفيح والممتدة بجوار السور إلى بداية المقابر والتي باتت ملاصقة لها جغرافيًا وإن كان كلٌّ من سكانها يرفض الاندماج

في الآخر وكأنه جنس غير الجنس، ليبدأ أنفك يشم رائحة بول الخيول المتخمر والذي لا يمكنك أن تمنع حذاءك الجديد من الانغماس في روث حيواناتها المربوطة بسلاسل في حلقات حديدية قديمة مثبتة بعمر السور، بينما تسمع صوت صياح الدجاج المنتشر في كل شوارع الحي يجري بحثًا عن غذاء له في أرض الحي وسط القمامة.

يتقابل مع سور مجرى العيون مسجدٌ بُنيَ حديثًا ولكن بصورة بدائية ظهرت في مأذنته مربعة الشكل التي وُضِع أعلاها مكبِّر صوت كهربائي حديث، بينما واجهته بالكامل مدهونة بالجير الأصفر، مرسوم عليه صورة للكعبة الشريفة بصورة بدائية لا تعدو أكثر من اجتهادات تلميذ ابتدائي في حصة الرسم. يتوسطه باب خشبي قديم لا يُغلَق أبدًا، على يساره باب آخر يؤدي إلى الميضة ودورات المياه ذات الطابع البلدي القديم والتي تشتم رائحتها من أول الشارع، تصطف أمامها مجموعة من فِرَد الشباشب غير مكتلمة الأجزاء إلى جانب بعض «القباقيب» الخشبية التي يستخدمها المصلّون قبل وأثناء الوضوء.

اجتاز جمال سور مجرى العيون والذي مع كل مرة يجتازه يشعر بشمئزاز النفس لاعنًا المجتمع الذي قذفَ به في ذلك المستنقع. يسير بخطواتٍ بطيئة يحاول فيها الحفاظ على ملابسه من الاتساخ بسبب طين الأرض بينما وزع الرزق كله على أصحاب السيارات الفارهة والأموال المتكدسة في البنوك بأصل ونسب ومال، أما هو فماذا تركت له الحياة ليعيش بها؟

يتعامد الشارع الرئيسي على سور مجرى العيون والتي تقف على قمته سامية النشالة أمام نصبة الشاي الخاصة بها بعد أن تابت إلى الله عن النشل وامتهنت عمل الشاي لبعض العُمَّال والصعايدة والذين تجمَّعوا حول نصبة الشاي الخاصة بها يجلسون إما على كراسٍ قديمة هالكة أو على «بسطة» من الأسمنت صنعها لها أحد العمال من بواقي مواد بناء عمارة كانت تُشيَّد يالقرب منهم بعد أن غطتها بقطعة سجاد قديمة مسروقة من مسجد الحي قبل تجديده.

ملامح سامية الهادئة لا تخبر بأصلها الغجري إلا من شعرٍ أصفر ذهبي اللون تظهر خصلاته من أسفل طرحة ساقطة دائمًا من على رأسها. امرأة أربعينية لم يرزقها الله بالأولاد ولكنها تبنَّت أبناء زوجها الذين ماتت أمهم وأبوهم على التوالي، وتراهم بجوارها دائمًا على نصبة الشاي الخاصة بهم. ممتلئة الجسم بعض الشيء، تظهر ملامح اكتمال نضوج جسدها من عباءتها السمراء التي لا تغيِّرها والتي تلفت إليها نظرات المارة والطامعين في أن ينالوا منها ما عفت هي عنه.

رفعة أكمام عباءتها زادت أنوثتها رغم غلظة حديثها مع زبائنها والذي يبدأ دائمًا بمغازلتها وينتهي بألفاظ قبيحة تثير الهوى في نفوس المتلطعين حولها.

أكملت سامية صبّ الشاي في أكواب بدت صفراء اللون من اتساخها، وخرجت حيث تضعهم أمام زبائنها، بينما العيون تأكل ملامحها الغليظة التي يتملكها الغيظ هذا الصباح والتي ظهرت معالم قسوتها مع قدوم أبيها «فرج الأكتع» إليها يجلس في مكانه المعتاد يطلب منها «واحد شاي خمسينة» قبل أن يُخرج من جيب سترته البنية البالية بذراعه السليمة قطعة من الأفيون يضعها تحت لسانه مستمتعًا بمذاقها.

وضعت سامية كوب الشاي أمام فرج الأكتع وهي تقول له:

- حسابك تقِل قوي يابا، إلا ما شُفت منك أبيض ولا أسود!

- يا بت عيب دا أنا أبوكي اللي مربيكي، جاية تطلبي منِّي فلوس بدل ما تساعديني في كبري روحي شوفي الزباين عايزين إيه.

لمحت سامية من بعيد طيف أخيها قادمًا بهيئته المعهوده، فلتفتت إلى أبيها بنظرة سخرية تخاطبه.

- أهو الأفندي «المسئف» ابنك وصل من المدرسة.

- اسمها جامعة يا جاهلة.

- سبناله العِلم يا اخويا لما نشوف هيعمل بيه إيه.. في الآخر هيقعد جنبك هنا على القهوة أصرف عليه.

على الرغم من سخرية سامية الدائمة من أخيها ورغبته في التعليم وإصراره على دخول الجامعة رغم أنها ليست من عادة الغجر، إلا أنها في الحقيقة تكن له كل حب واحترام؛ فقد كان بمثابة فخر أولاد فرج الأكتع جميعهم حتى صالح الابن الأكبر لفرج لا يتسنى أن يتباهى أمام أصدقائه الذي يجلس معهم على المقهى بأخيه طالب الجامعة والذي سوف ينقل حوش الغجر بأكمله إلى آفاق المدنية الحديثة. إلا أن تلك الانطباعات الجيدة كلها لا تصل إلى بال جمال إما لعدم إظهارها له في وجوده أو لعدم رغبته هو أساسًا بها، بعد أن بات كل همه إنهاء دراسته الجامعية والتخلص تمامًا من العَيش في حوش الغجر.

تقدَّم منهم جمال، ألقى السلام بوجهٍ عابثٍ اعتادوا عليه، قبل أن يغادرهم مخترقًا ذلك الرواق الطويل الذي يكمن فيه منزله بصحبة فرج الأكتع الذي يسير بجواره متباهيًا به يجذب معه طرف حديث كان جمال عنه عازفًا.

- تعرف يا واد يا جمال أنا عارف إنك أول ما تكبر وتوصل هتقلّ بأصلك معانا وتستعر مننا، مش بعيد كمان تتجوز بنت من بنات القاهرة وتتبرأ من أصلك، بس أنا بحبك ياد إنت دونًا عن كل اخواتك، علشان كده خليتك تكمِّل علامك رغم إنه مامنّوش فايدة.

- مامنّوش فايده ليه؟! كنت عايزني أطلع عربجي زيك؟ ولّا أقف على نَصبة شاي زي سامية؟ ولا يمكن أطلع عواطلي بالوراثة زي صالح أخويا اللي بيصحى من النوم الساعة 5 العصر ماحدّش عارف بيروح فين ولا بيجي منين ولا حد يعرف بيجيب الفلوس دي منين.

- ياريتك تبقى زيه، صالح دا اللي عفريت بصحيح، شوف أهو ما كملش علامه ويادوبك بيفك الخط بس الواد ذكي وفاهم الدنيا كويس. دخل في زوارق الكبار وشغَّال معاهم مية فل وأربعتاشر، ويا عالم بكرة يوصل ويبقى فين،

بقى أفندي مَلْو هدومه، وبقيت أفرح بيكوا وسط أهل الحتة الأوباش اللي ساكنين معانا.

تقدَّم جمال يجاوره فرج الأكتع من مدخل الحارة التي يسكنون بها. نظرة الاشمئزاز لا تفارق ثغره خاصةً بعد أن اتسخت ملابسه من روث حصان أبيه المربوط في عربة الكارو الواقفة أمام مدخل البيت.

- إنت ليه يابا مش عايز تبيع العربية دي والحصان، ولَّا فرحان إنك عربجي؟!

- وماله العربجي؟! العربجي دا اللي ربَّاك وعمل مِنك أفندي مَلْو هدومك، جاي دلوقت تستعر منه.

لم تمضِ بضع لحظات حتى استكمل فرج حديثه بنبرة من الحنين إلى ذكريات الماضي:

- إنتَ ما شُفتنيش زمان في شبابي يا واد، كنت بصرف اتنين جنيه في اليوم الواحد، ستك الله يرحمها كانت «كودية زار» أد الدنيا وكان البيت دا مليان خير وكل أهل الحارة الواغش دول بياكلوا منه، بس بقى دا حال الدنيا قبل ما أشتري الحصان والعربية وأبقى عربجي بعد كار الزار ما بطِل حاله.

- كمان كنت صبي «كودية زار»؟! ما شاء الله عِيلة تفرح بجد.

- أصل انت لبست البنطلون والقميص والمدرسة نسِّتك أصلك إنك من الغجر.

- لا مانستش يابا، كل حاجة حواليَّا بتفكرني إني من الغجر، ريحة الشارع، وشكل البيوت، حتى منظر الناس، كلها بتفكرني إني من الغجر.

- يا ابني الغجر دول ملح الأرض، زي الملح في الأكل كده ماحدش يقدر يستغنى عنه، بس ما تقدرش تكله لوحدة، يكسر نفسك. علشان كده كل الرجاله اللي بيحبوا بنت غجرية كانت نهايتهم سودة، الغجر نار لا تقرَّب منهم ولا تخالطهم، تاخد عسلهم وتتقي شرهم.

- أنا داخل أنام يابا.

جلس فرج الأكتع على العتبة الحجرية التي تفصل الشارع عن مدخل البيت وملاصقة لجداره الأمامي متكئًا على عصاه الخشبية القديمة يخاطب نفسه بينما اختفى طيف جمال من أمامه.

- يا خوفي عليك يا جمال تندهك النداهة وتروح يا ابني.

***

(2)

إن كنتوا نسيتوا اللي جرى، هاتوا الدفاتر تنقرا

في حوش الغجر تندر العمارات إلا من بعضها الذي ظهر عنوة في غفله من الزمن في الفترة الأخيرة بسبب ظهور بعض الغرباء في الحي وهم من أبناء الأحياء الأكثر فقرًا في ضواحي القاهرة والمجاورة لمنطقتهم والذين ارتفعت عليهم أسعار السكن في تلك المناطق فوجدوا من حوش الغجر ملجأ ومأوى لهم، أو من بعض أهل الصعيد المهاجرين إلى القاهرة بحثًا عن فُرَص عيش أفضل أو هروبًا من الثأر، فكوَّنوا قوة لا يُمكِن أن يُستهَان بها وباتت قواها تُنافس قوة أهل العزبة الأصلين والذين من فترة إلى أخرى تنشب بينهما معارك طاحنة في محاولة لإثبات الهيمنة على العزبة وأهلها.

أما الغجر فلا يعيشون في عمارات أو بيوت. ولكن يعيشون في حوشٍ كبيرٍ، وهو عبارة عن بناء واسع متكوِّن من دور واحد ينخفض عن الأرض بضع ياردات بسبب عوامل التعرية التي رفعت من مستوى الشوارع حتى كادت أن تطمس مدخل الحوش فأصبح دخولُه يحتاج إلى نزول درجة أو درجتين. في وسطه مَمرٌّ طويل يفصل جانبين من الغرف المغلقة على ساكنيها بأبواب خشبية متهالكة لا تقي من بردٍ ولا تمنع صوتًا ولا تخفي سرًّا حتى تكاد تسمع أنين المرأة في مخدعها، تعيش كل أسرة في غرفة خاصة بها لا يجمعهم إلا جلسة مسائية على حصيرة تُوضَع بعد صلاة العشاء بعد كنس الأرض ورشِّها بالماء

لتتبادل النساء الحكايات والأخبار والوشايات بينهن في نسمات الصيف الباردة أو بإشغال قِطَع الخشب القديمة في وسط دائرتهم للتدفئة في ليل الشتاء القارص.

حوش فرج الأكتع ليس الأكبر في الحي وذلك بسبب ما تمتَّع به أهله في ربيع شبابهم من الغِنى أثناء ازدهار مهنة «الزار» والتي كانت تدر عليهم دخلًا كبيرًا جلعت منهم أصحاب كلمة مسموعة في الحي كله، فعكفوا على تأجير غرفة إلى أهل الحي أو الغرباء كما كانت تفعل «أم عابد» في حوشها الأكثر اتساعًا - والذي غير معروف على وجه اليقين إن كانت أم عابد هي مالكة هذا الحوش أم لا - إلا أن وضعها في الحي وقِدَم عمرها طمس الحقيقة كاملة خاصةً بعد تغيُّر سكان الحوش بأكملهم، إما للوفاة أو للسفر للخارج أو للانتقال للعيش في أحد أحياء القاهرة الجديدة هربًا من جحيم الحوش إلا أن في النهاية أصبح الأمر واقعًا وأطلق على الحوش «حوش أم عابد» في البداية دلالة على وجودها به ثم أصبحت الكلمة بمرور الزمن دليلَ مِلكية يضاهي في قوته وثائق الحكومة وحُجَجها. والذي بات يساع أكثر من عشر عائلات متوسطة العدد، وإن تغيَّر السكان لا تُغيِّر أم عابد من غرفتها التي تسكن بها مع حفيدتها سماح.

حوش أم عابد طرأ عليه الكثير من التعديلات خاصةً بعد الثراء الذي ظهر فجأة على الأسرة، فتمَّ طلاء واجهته الأمامية باللون الأصفر إلى جانب بناء دور ثانٍ مكوَّن من غرفة واحدة يتم الصعود إليها بسلم خشبي وضع في مدخل الحوش. رغم ذلك مازالت كل غرف الحوش مطليه بالجير الأزرق المتساقط من الرطوبة فتظهر الحجارة العتيقة التي بُنيَ منها البيت قبل ظهور الطوب الأحمر!. يتوسط واجهته من الجانب الأيمن شباك حديدي عتيق على شكل شبكة ذات مربعات كبيرة. لم يكن هناك أدنى شك أنه سُرِقَ من بواقي أنقاض المسجد القديم الذي سقط مع زلزال سنة 92 فاستولت عليه أم عابد لبيتها، بينما في الجهة المقابلة يوجد فانوس حديدي كبير موضوع أعلى البيت، مسدَّس